أ. بوسيف مختارية

قسم الفلسفة

– جامعة سيدي بلعباس–

العقل ودلالته في القرآن الكريم

أكرم الله تعالى الإنسان فأسجد له الملائكة ،و ميزه بالعقل وفضله على الكثير من مخلوقاته، وجعله دون بقية خلقه خليفة في الأرض، وكلفه بعمارتها وأنزل عليه رسلا بشرائع ومناهج حتى لا يضل ولا يشقى.

وقد تقلب الإنسان منذ وجوده على هذه المعمورة بين الهداية والضلال حسب اقترابه من منهج الله أو ابتعاده عنه، وكان آخر هذه المناهج نزولا القرآن الكريم أنزله تعالى هداية للعالمين فأحيا به القلوب وأنار العقول .

فوجد العقل فيه ضالته،وانطلق في رحاب هذا الكون يكتشف ويبدع، مما أنتج حضارة عظيمة تفردت عن كل الحضارات بميزات عديدة أهمها قيامها على المنهج العلمي السليم .

واستمرت هذه حضارة الإسلامية تضيء للعالم الطريق لقرون عديدة إلى أن ورثها مسلمو هذا العصر،والذين لم يتمكنوا من الحفاظ عليها فضاعت منهم وتخلفوا عن ركبها.

وهذا كان نتيجة أسباب عديدة أعتقد أن أهمها إهمالهم للدور الحقيقي و الفعال للعقل.

ولهذا أصبح من اللازم دراسة هذه الأسباب ومعالجتها بعلم وحكمة،وذلك بالعودة إلى كتاب الله علما وعملا.

وقد تحدث الباحثون عن العقل في مواطن عديدة، و وقعت فيه اختلافات وتباينت حوله الآراء.

إلا أني أرى أن دراسة هذا الموضوع انطلاقا من كتاب الله تعالى سيلقي الضوء على الجوانب المهمة ،وسيزيل تلك الخلافات والتراعات التي تثار حوله.

وعلى هذا الأساس حاولت التعرض في هذا المقام إلى حديث عن العقل في القرآن الكريم من خلال استقراء النصوص التي ذكرته إما باللفظ أو المعنى.

وقبل الخوض في هذا الموضوع لابد من الوقوف أولا على معناه في اللغة والاصطلاح.

I –دلالة العقل :

لغة:العقل في المعاجم اللغوية مصدر من فعل عقل يعقل فهو عاقل،وأصل لفظ العقل هو:المنع والحبس،وهو ما يكاد يجمع عليه أهل اللغة.(1)

اصطلاحا: **تعددت تعاريف العلماء للعقل تبعا لتخصصاتهم العلمية وكل نظر إليه من منظوره الخاص، ولهذا لا يكاد الباحث عن دلالته الاصطلاحية أن يقف على تعريف واحد له.**

يقول الإمام بدر الدين الزركشي مبينا تعدد التعاريف بتعدد الاختصاصات من طب وفقه وفلسفة وغير ذلك: "فأما الفلاسفة فشأنهم الكلام في الموجودات والعقل موجود ،والأطباء شأنهم الخوض فيما يصلح البدن و العقل سلطان البدن والمتكلمون هم أهل النظر والنظر أبدا يتقدم العقل، و الفقهاء تكلموا فيه من حيث أنه مناط التكليف " ،ثم ذكر أن فيه ألف قول.(2)

و هو ما نقله القرطبي ،والجرجاني.(3)

و ذهب معظم علماء السلف إلى اعتباره غريزة في الإنسان،نقل هذا عن الإمام أحمد بن حنبل حيث قال :" العقل غريزة".(4)

وكذلك الحارث بن أسد المحاسبي عرفه قائلا :" هو غريزة وضعها الله في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد من بعض ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ولا حس ولا ذوق ولا طعم وإنما عرفهم الله إياها بالعقل منه ". (5)

عرّفه بعضهم بالعلم،وينسب هذا القول للإمام أبي الحسن الأشعري،فهو لا يفرق بين العلم والعقل والمعرفة والفقه،فكل ذلك عنده بمعنى العلم.(6)

ويقول الراغب الأصفهاني :"العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ،و يقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل".(7)

فيما عرفه بعض المتأخرين بأنه النتيجة النهائية التي تعقب عملية التفكير، أو مجموعة الأحكام التي يصدرها الإنسان في أعقاب عملية التفكير.

والتفكير عبارة عن عملية فكرية متواصلة تبدأ من لحظة الإحساس بالواقع ،ثم الانتقال إلى الدماغ وما يتبع ذلك من نشاطات ذهنية وتنتهي بإصدار الحكم.(8)

و يرى العقاد أنه ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع من المحضور ويمتاز بخصائص عديدة أهمها ملكة الإدراك بها يتعلق الفهم والتصور للأشياء وعواقبها (9)

قد تبدو هذه التعاريف للوهلة أولى أنها متابينة فيما بينها لكن إذا أمعنا النظر فيها نجد أنها تكاد تتفق فيما بينها **على اعتبار العقل أداة الفهم والوعي والإدراك ،فبه يحصل الفهم والتفكير لإعطاء النتيجة النهائية وهي**

الحكم ،وإن اختلفت اطلاقات العلماء عليه من غريزة أو علم أو ملكة فلا مشاحة في الاصطلاح.

العقل ودلالته في القرآن الكريم

إن العقل بدلالاته اللغوية استعمل في العصر الجاهلي ،كما استعمل في العصر الإسلامي.

ومما لاشك فيه أن القرآن الكريم قد أضفى على هذه المفردة- كما أضفى على غيرها- ثوبا جديدا ،وأعطاه بعدا إسلاميا أكثر عمقا،حيث تطورت دلالته من البساطة اللغوية إلى المنهج العلمي السليم.

فالقرآن الكريم تحدث عن العقل بصيغه الفعلية المختلفة في العديد من آياته و لم يأت ولا مرة باسمه،أي كاسم جنس مفردا لم يذكر فيه ، بل جاء في أسرته الاشتقاقية المختلفة.(10)

فقد ذكر العقل بصيغة الفعل المضارع إما على سبيل الاستفهام:"أفلا تعقلون"أو الترجي "لعلكم تعقلون "، أو التقرير:"لقوم يعقلون "،أو النفي :"لا يعقلون".(11)

كما ذكر القرآن آثاره العاملة في الإنسان من تعقل ،وتفكر،و تدبر ،و غيرها

كما عبر عنه بألفاظ أخرى تحمل الدلالة نفسها مثل : اللب ، الحلم ...

وهنا يطرح التساؤل التالي:**لماذا لم يذكر العقل باسمه كما هو الحال مع القلب والنفس مثلا؟**

و للإجابة عن هذا التساؤل ينبغي استقراء النصوص القرآنية التي ذكر فيها العقل بصيغه الفعلية المختلفة.

فعند الرجوع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة"ع.ق.ل"وجدت الكلمة قد ترددت بالصيغة الفعلية في تسع وأربعين أية في ثلاثين سورة، تفصيلها كالآتي :

1-في صيغة **"تعقلون"** وردت في أربع وعشرين أية، منها ست عشرة أية جاءت بأسلوب استفهام في قوله تعالى:**"أفلا تعقلون "**.

وثمان آيات في أسلوب الترجي :**"لعلكم تعقلون"**.

2 -في صيغة **"يعقلون"** وردت في اثنتين وعشرون أية، منها اثنتا عشرة أية جاءت في أسلوب النفي بأداة لا النافية في قوله تعالى:**"لا يعقلون"**.

وعشر آيات بدون نفي في قوله تعالى :**"لآيات لقوم يعقلون"**.

3 -في صيغة " **عقلوه**" مرة واحدة في سورة البقرة الآية 75.

4-وفي صيغة **"يعقلها"** مرة واحدة في سورة العنكبوت 29 .

5 -في صيغة " **نعقل**" كذلك مرة واحدة في سورة الملك 10.

وبعد أن استقرأت هذه النصوص قسمتها إلى نموذجين:

النموذج الأول: آيات قرآنية توجه العقل إلى الوجود وما فيه من الآيات الكونية حتى يتأملها وذلك ضمن ثلاثة محاور أساسية تتحدد فيها علاقة العقل بالطبيعة، وأصل الإنسان،والحواس.

النموذج الثاني: يشمل نصوصا تشير في مجملها إلى أحكام تشريعية مختلفة .

و أبدأ مع النموذج الأول:و سأتحدث بالاختصار عن المحاور الثلاثة.

المحور الأول: العقل والطبيعة الكون : لقد ذكر الله تعالى الكون وما فيه من مخلوقات في آيات كثيرة جدا إلا أن ما أريده في هذا المقام هو تلك الآيات التي جاء فيها ذكر لفظ العقل بصورة مباشرة ،و سأسوق مثالا واحدا من القرآن الكريم لأن المقام لا يتسع لعرض كل الآيات في هذا المجال يقول الله"إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل و النهار و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة و تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" البقرة ١٦٤

فعند قراءة هذه الآية وغيرها من الآيات القرآنية المتعلقة بهذا المحور رأيت أن الله تعالى يعرض على العقل مظاهر الطبيعة على شكل متقابل، فالسماوات تقابل الأرض، والشمس مقابل القمر،والليل يقابل النهار والمشرق مقابل المغرب ، والإحياء مقابل الإماتة .

فوجب الوقوف عند هذا التقابل الثنائي، إذ أنه ليس من قبيل الصدفة أن تعرض هذه الظواهر متقابلة و في هذا العدد الهائل من الآيات.

حيث تبدو هذه الثنائية الطبيعية أو التقابل بين ظواهر الكونية قاعدة أولى يستند القرآن عليها للبرهنة وإثبات قوة الإبداع والخلق،"فالله تعالى لم يقتصر في بيان وحدانيته على مجرد الإخبار حتى قرنه بالنظر والاعتبار في آي القرآن". (12)

وهذا التقابل جدير أن يلفت نظر الإنسان ويثير فضوله لدراسة هذه الظواهر والوقوف على أسبابها ،وكشف النظام الذي تسير عليه.

فتقابل الليل والنهار مثلا بذلك الشكل المطرد يدفع العقل إلى كشف حركة الزمن وفك رموزها .(13)

وهذا العرض القرآني يبدو بسيطا وعميقا في آن واحد حيث يستفيد منه الجاهل والعالم (14)

فهو توجيه رباني يوقظ العقول الغافلة إيقاظا ويدفعها للتدبر والتفكر.

والآيات الكريمة عرضت دلائل كونية عظيمة من شمس وقمر وليل ونهار وسماء وأرض... في صور رائعة ،وأسلوب معبر وبليغ،وهو يناسب ما هي عليه من الدقة والإحكام ،و النظام العجيب مما يشد العقل إليها شدا فيعرف بعد تأمله لها ضعفه الشديد أمام قدرة الله وقوته .

وهي جديرة أن تكون محل دراسة وبحث للعقل ليتمكن من الاستفادة منها أكثر في خلافته للأرض.

المحور الثاني العقل وأصل الإنسان:

ذكر الله تعالى بأصل الإنسان في مواطن كثيرة من كتابه العزيز من ذلك قوله سبحانه:"هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا..." إلى قوله"ولعلكم تعقلون"سورة غافر :67

تعتبر هذه الآية الكريمة دليلا عقليا يساق لمن ينكر ويجادل في وحدانية الله فالمنكرون لا يمكن مخاطبتهم عن طريق التسليم المطلق بل تقدم لهم الأدلة و البراهين التي تقنع العقل،ولهذا كان ختام الآية "لعلكم تعقلون".

فمن اعترف بهذا واقتنع سهل عليه الإيمان بالإيجاد مرة أخرى أي بالبعث بعد الموت.(15)

ودلالة لفظ العقل هنا دلالة ترمي إلى تعقل الإنسان لحقيقة وجوده انطلاقا من تفكره في تقلبه المستمر بين مراحل الحياة المختلفة من ضعف إلى قوة ثم إلى الضعف مرة أخرى،ثم إلى نهايته المحتمة والتي لا مفر منها "الموت" .

وكل من لديه عقل ينظر به إلى حال نفسه يدرك أن الذي خلق هذا الإنسان من العدم وقلّبه في مراحل شتى قادر على إحيائه مرة أخرى لأن الذي قدر على الإحياء والإماتة قادر على البعث مرة أخرى، ومن غفل عن هذه الآية العظيمة في الخلق و لم يتفكر فيها كان كفاقد العقل لكونه لم ينتفع به .

المحور الثالث العقل والحواس:

كثيرا ما نجد في القرآن الكريم ذكر لحواس الإنسان خصوصا حاستي السمع والبصر،وكثيرة هي الآيات التي يأمر الله فيها عباده باستعمال حواسهم للاهتداء من تلك الآيات قوله تعالى:"إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون" سورة الأنفال22

جاء في تفسير هذه الآية أنه لما كان الكلام الصادر عن الله ورسوله من شأنه أن يقبله أهل العقول، كان مجرد سماعه مقتضيا عدم التولي عنه.

ففائدة السمع العمل بالمسموع، ومن سمع الحق و لم يعمل به فهو كالذي لا يسمع، ولما وصفهم بعدم السمع، والعجز عن النطق بالحجة أتبعه بانتفاء العقل عنهم أي عقل النظر والتأمل والتقبل.(16)

والقرآن الكريم يشير إلى أن الانتفاع الحقيقي بالحواس خصوصا السمع والبصر هو الذي يثمر معرفة الحق و إتباعه وإلا يكون صاحبها شأنه شأن الدواب.

فالقرآن الكريم حين نزع صفة التعقل عن المنكرين للحق لم يعن بذلك أنهم مجانين أو خرس و لم ينف عنهم القدرة على كشف الروابط الموجودة بين ظواهر الأشياء لكنه نفى عنهم العقل السليم الذي يوصل صاحبه إلى الإيمان بتوحيد الخالق تعالى .

فمعطيات الحس هي منطلق التفكير والتدبر، لأن الآيات الكونية مثل السماوات والأرض أو الشمس والقمر مرئية بالعين، واختلاف الطعوم نتذوقها باللسان فهي موضع للتدبر لكونها تدل على الرازق المنعم تعالى ، فهذا منطلق التفكير و واسطته للوصول إلى النتيجة المنطقية وهي أن يكون للكون مدبرا ومنظم (17)

فالظاهرة العقلية هنا عقلية من جهتين :

الأولى : استدلالية، ومعناها الاستدلال بالمشاهد على ما وراء المشاهد أي الاستدلال بالكون على خالق الكون سبحانه.

الثانية: سببية ومعناها ارتباط هذا الكون — بمعطياته- بموجده الذي أوجده. (18)

فالآيات القرآنية التي تشير إلى الحواس لها دلالة علمية تقتضي من الإنسان استثمار حواسه باعتبارها منافذ يطل منها على الوجود الحسي من أجل المعرفة الإنسانية التي تتعلق بالوجود المادي للأشياء .

ومعطيات الحس المشاهدة شرط أولى تبنى عليه المعرفة اليقينية في هذا المجال. (19)

و القرآن الكريم بأسلوبه الحكيم يعرض أجزاء الكون في صور عديدة بشتى الألوان حتى يتدرج الناس من إدراك الأشياء المادية إلى الحقائق العقلية المجردة.

فهو بهذا يجعل وظيفة الحس مكملة لوظيفة العقل ،وعليه سارت العلوم النظرية والحسية التجريبية في الإسلام جنبا إلى جنب،فأثمر ذلك تحولا حضاريا ضخما في هذا المجال.

إذا العلاقة بينهما علاقة تكامل وتداخل وتعاون في تحصيل المعرفة والعلم وبداية عمل العقل هي نهاية عمل الحواس.

إذ أن العقل والحس وسيلتان من وسائل المعرفة لا يمكن الاعتماد على إحداهما دون الأخرى (20)

والعقل في القرآن الكريم لا يكتفي بالإدراك المجرد ،بل يتعداه إلى معرفة الهداية، واتباع سبيلها، فيقترب بذلك من الله تعالى بطاعته مستعملا الوسائل الحسية .

من خلال ما سبق عرضه تبين أن القرآن الكريم أشار إلى الآيات الكونية بكثرة ، حيث ساقها في أساليب وتعابير مختلفة .

فيفصل مرة ويجمل أخرى ،وقد يذكر المتقابلات في آية واحدة ،وقد يفرد كل ظاهرة بمفردها.

كما أنه يجمع الآيات السماوية مع الأرضية في إطار واحد أحيانا ،وقد يفرق بينهما في أحيان أخرى تنبيها للعلماء خاصة والناس عامة .

و يقدم الإنسان موضوعا للمعرفة مستوعبا بذلك تركيبه العقلي، والنفسي والفيسيولوجي،وكثيرا ما يعبر عنه"بالأنفس "،كما يقدم حركته عبر التاريخ

موضوعا للمعرفة ،وهو بذلك يفتح مجالا حيويا وخصبا للمعرفة المتعلقة بالإنسان .

وجاءت نهاية هذه الآيات القرآنية منبهة للعقل في صيغة "يعقلون ،أو تعقلون " كي توقظه ومن ثم يتبين عمله في التهدي ،وتوطيد دعائم الإيمان .

إذا خواتم هذه الآيات تبين طريق الهداية للعقل المتحرر الذي يجعل من العلم والمعرفة سبيلا له لمعرفة الله سبحانه، والإقرار بوحدانيته.

وإذا كان النظر للكون أو الوجود ودراسته يلقي ضوء كاشفا على الحقيقة فإن دلالة الفعل "يعقلون" توحي أنها واسطة هذا الكشف ،والفاعل هو العقل لكون الذين لا يعقلون هم من لا يدركون هذه الحقائق .

فالعقل هو أداة الفعل يعقل ،ويكمن دوره في تتبع الظواهر الكونية وإدراك العلائق التي تربط بينهما ، ومن ثم استنباط الحقائق ،وفعل العقل ليس منفصلا عن العقل ،والعقل هو وسيلة المعرفة وأداة الفهم والإدراك .

وهذا ما يفسر ورود لفظ العقل في القرآن بالصيغ الفعلية بدلا عن الاسمية.

"فالقضايا العقلية لا تتعلق بالصيغة الاسمية قدر تعلقها بعمل العقل ودوره الفعلي" .

إن القرآن الكريم يعرض الوجود بما فيه حيا ينبض بالحركة والحياة لا يهدأ حتى أن ذلك يطبع في العقل أن التوقف عن الحركة لحظة واحدة يؤدي إلى الدمار والفناء .

وهذه الحركة متجلية في :حركة الزمن من تعاقب لليل والنهار ،ودوران الشمس والقمر، وكذلك حركة الجماد ، حيث يتغير وجه الأرض تبعا لتغير لحركة الزمن وفصول السنة،وحركة الإنسان المتمثلة في أطواره الحياتية المختلفة ،فردا وجماعات .

هذه الحركة ليست عشوائية عبثية بل هي منظمة وفق سنن ونواميس معينة منضبطة تحكم الوجود بما فيه من إنسان ونبات وحيوان.

فكل هذا يدرب العقل على التفكير و التدبير في هذه النواميس حتى يتعود دقة النظر وانضباط الأحكام، و تطبعه بطابع التنظيم و الدقة.

إذا العقل في القرآن الكريم أسمى ما في الإنسان ،فهو الذي يميزه عن الحيوان ،وهو الذي يصله بالكون ،وخالقه ليؤمن إيمانا يقينيا واعيا مدركا،فهو أداة الفعل يعقل غير منفصل عنه، وهو أداة الفهم والإدراك ،والمعرفة .

الهوامش:

---

(1)أحمد رضا:معجم متن اللغة ج4ص167–بيروت–دار و مكتبة الحياة–ط1379.

(2) بدر الدين: البحر المحيط ،تحقيق لجنة من علماء الأزهر :ج 1 ص116–دار الاتحاد .

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد :الجامع لأحكام القرآن ج1 ص370. و على بن محمد:كتاب التعريفات ص196 –بيروت–دار الكتاب–ط4: 1418–1998.

(4) بدر الدين الزركشي : المصدر نفسه ج1 ص118.

(5) العقل وفهم القرآن–ت:حسن القوتلي –دار الكندي– ط3: 1402–1982. ص202

(6)سميح دغيم :موسوعة علم الكلام ج1ص813–ط1 : 1998–مكتبة لبنان –بيروت.

(7) أبو القاسم الحسين:معجم مفردات ألفاظ القرآن – دار الكتب العلمية– بيروت–ط1 1418– 1997– ص382.

(8) معروف نايف :الإنسان والعقل–بيروت —سبيل الرشاد– ط1: 1415–1995–ص177.

(9)عباس محمود العقاد :موسوعة العقاد الإسلامية :التفكير فريضة إسلامية –ط1 :1391–1971–دار الكتاب العربي —لبنان– ج5ص829.

(10) محمد على الجوزو :مفهوم العقل والقلب في القرآن الكريم والسنة–ط 2: 1983–دار العلم للملايين– بيروت– ص43– ومعروف نايف :الإنسان والعقل ص113 و

(11) محمد علي الجوزو: المرجع السابق :ص55.

وعبد الكريم الخطيب :الإنسان في القرآن الكريم –ط1: 1979–دار الفكر العربي–ص29

(12)القرطبي :أحكام القرآن ج2 ص202.

(13) مجلة المسلم المعاصر: العدد 78 محمد أمزيان :أصول المنهج المعرفي في القرآن والسنة ص101.

(14)محمد علي الجوزو :مفهوم العقل والقلب في القرآن ص62.

(15) محمد على الجوزو : مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص66–71

(16)الطاهر ابن عاشور:التحرير والتنوير ج9 ص303.

(17) محمد أمزيان :المنهج المعرفي في القرآن والسنة ص109.

(18)الحارث المحاسبي : العقل وفهم القرآن ص118.

(19)محمد أمزيان مرجع نفسه ص94–95.(20)معروف نايف :الإنسان والعقل ص177